المقالة الأولى

في ماهية الكتابة وصفة الكاتب الكامل وما يتعلق بهذا

الكتابة صناعة مشتملة على قياسات خطابية وبلاغية، ينتفع بها في المخاطبات بين الناس على سبيل المحاورة والمشاورة والمخاصمة، في المدح والذم، والاحتيال والاستعطاف والإغراء، وتكبير الأعمال، وتصغير الأمور، والتصرف في وجوه الاعتذار والعتاب، وفي إحكام العلائق، والتذكير بالسوابق، وترتيب الكلام وتنظيمه في كل واقعة على الوجه الأولى والمنهج الأحرى.

فينبغي أن يكون الكاتب كريم الأصل، شريف العرض، دقيق النظر، عميق الفكر، ثاقب الرأي، وأن ينال الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر من الأدب وثمراته، وينبغي ألا يكون بعيدا من القياسات المنطقية، غريبا عنها، وأن يعرف مراتب أبناء الزمان ومقادير أهل العصر، وألا يشغل بحطام الدنيا وزخارفها، ولا يلتفت إلى التحسين والتقبيح من أصحاب الأغراض وأولي الإغماض ولا يغتر بهم.

وأن يصون عرض مخدومه في مقام الترسل عن المنازل الدنية، والمواضع الخاملة، ولا يشتد في أثناء الكتابة، وسياق الترسل على أرباب الحرمة وذوي الحشمة، وإن كان بين المخدوم والمخاطب خصومة وجب أن يصون قلمه ولا يقع في عرض المخاطب إلا من جاوز الحد، وخرج عن التصون، فقد قيل: (واحدة بواحدة والبادي أظلم).

وينبغي أن يلتزم الطريق الأوسط في الألقاب، ويكتب إلى كل إنسان ما يلائم أصله ونسبه ومُلكه وولايته وعسكره وخزائنه إلا من شدد في هذا وتكبر وجاوز الحد وزاد في الانبساط إلى الدرجة التي لا يعدها العقل موافقة للمكاتبة وملائمة للمراسلة. فيجوز للكاتب ولا حرج عليه أن يأخذ القلم ويمضي قدما، ويبلغ في هذه السبيل أقصى الغاية، ومنتهى النهاية، فإن أكمل الناس وأفضلهم صلوات الله وسلامه عليه يقول: «التكبر مع المتكبر صدقة» وعليه ألا يدع غبارًا ينال مخدومه في ميدان المكاتبة من هواء المراسلة.

وينبغي أن يلزم في سياق الكلام نهجًا يجعل الألفاظ تابعة للمعاني، ويوجز ويقصر الكلام فقد قال فصحاء العرب: خير الكلام ما قل ودل. وحيثما جاءت المعاني في أثر الألفاظ طال الكلام، ودُعي الكاتب مكثارًا (والمكثار مهذار).

ولا يبلغ كلام الكاتب هذه الدرجة حتى ينال من كل علم نصيبا، ويأخذ عن كل أستاذ نكتة، ويسمع من كل حكيم لطيفة، ويقتبس من كل أدب طُرفة. فعليه أن يجعل ديدنه قراءة كلام رب العزة وأخبار المصطفى وآثار الصحابة وأمثال العرب، وكلمات العجم، ومطالعة كتب السلف، والاضطلاع على صحف الخلف، مثل:

ترسل الصاحب[١] والصابى[٢] وقابوس[٣] وألفاظ الحمادي والأمامي وقدامة بن جعفر[٤] ومقامات البديع والحريري وحميد[٥]، وتوقيعات البلعمي[٦] وأحمد بن حسن[٧] وأبو نصر الكندري[٨]، ورسائل محمد عبده[٩] وعبد الحميد[١٠] وسيد الرؤساء[١١]، ومجالس محمد بن منصور، وابن عبادى[١٢] وابن النسَّابة العلوي.

ومن دواوين العرب: ديوان المتنبي والأبيوردي[١٣] والغزي[١٤]. ومن شعر العجم: أشعار الرودكي ومثنوي الفردوسي ومدائح العنصرى.

فكل واحد ممن عددت نسيج وحده في صناعته، ورصد وقته. وكل كاتب يحصل هذه الكتب ويديم مطالعتها يشحذ خاطره، ويصقل ذهنه، وينير طبعه، ويسمو كلامه ويستحق اسم الكاتب.

فأما معرفته القرآن فقد يخرج بآية من عهدة ولاية كما فعل الإسكافي.

الحكاية الأولى

كان الإسكافي[١٥] من كتّاب آل سامان رحمهم الله، وقد أجاد هذه الصناعة، وبلغ ذروتها وأحسن الخروج من مضايقها. وكان يحرر في ديوان رسائل نوح بن منصور[١٦]، ولكنهم لم يعرفوا قدره، ولم يقدروا فضله. فذهب من بخارى إلى هراة عند ألبتكين. وكان ألبتكين تركيا عاقلا فطنا، فأكرمه وفوض إليه ديوان رسائله وحسنت حاله.

ولما ظهر الشبان في الحضرة واستخفوا بالقدمّاء احتملهم ألبتكين حينا ثم انتهى أمره إلى العصيان بما أصابه من الاستخفاف بإغراء جماعة من المحدثين. فكتب الأمير نوح من بخارى إلى زابلستان ليأتي سبكتكين بالجيش، ويأتي أصحاب سيمجور من نيسابور فيقاتلوا ألبتكين. وكانت حرب شديدة معروفة، وواقعة فظيعة مشهورة.

فلما بلغت تلك الجيوش هراة أرسل الأمير نوح علي بن محتاج الكاشاني، وكان حاجب بابه، إلى ألبتكين برسالة كالماء والنار مضمونها وعيد وسياقها تهديد فلم يدع مجالا للصلح ولا سبيلا للمسالمة، كما يكتب في مثل هذه الواقعة، وتلك الداهية سيد ضجر قاص إلى عبد عاص. وكانت الرسالة تفيض بأن سنأتي ونأسر ونقتل.

فلما سلم الحاجب أبو الحسين علي بن محتاج الكاشاني الكتاب، وأدى الرسالة ولم يقص منها شيئا زاد ألم ألبتكين وهاج وقال: أنا عبد أبيه، ولكن هذا السيد حينما تحول إلى دار البقاء لم يستخلفه علي بل استخلفني عليه. وإن لزمني في الظاهر أن أكون في طاعته فالقضية على خلاف هذا عند التحقيق، لأني في مراحل الشيب، وهو في منازل الشباب. والذين أغروه بهذا هم ناقضو هذه الدولة لا ناصحوها، وهادمو هذه الأسرة لا خادموها.

وفي شدة الغضب قال للإسكافي: إذا كتبت جواب الرسالة فلا تدخر وسعا في الاستخفاف. وأريد أن تكتب الجواب على ظهر الرسالة.

فكتب الإسكافي الجواب على البديهة، وكتب في أوله:

بسم الله الرحمن الرحيم «يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين»[١٧].

فلما بلغت الرسالة أمير خراسان نوح بن منصور وقرأها تعجب كثيرا، وتحير رؤساء الدولة وعض الكتاب أناملهم.

ولما انقضى أمر ألبتكين اختفى الإسكافي واستمر في خوف وفزع إلى أن أرسل نوح إليه ودعاه وفوض إليه الكتابة فارتفع أمره، وعلت مكانته بين أرباب الأقلام وذاع صيته.

ولو لم يحسن معرفة القرآن لم يهتد إلى هذه الآية في تلك الواقعة. ولم يعلُ أمره إلى هذه الدرجة.

الحكاية الثانية

علت مكانة الإسكافي فتمكن في خدمة الأمير نوح بن منصور. وعصى ماكان بن كاكوى في الري وقهستان[١٨]، وخرج من ربقة الطاعة. وبعث عمالا إلى خوار وسمنك، واستولى على بعض مدن قومس ولم يبال بالسامانيين.

وكان ماكان رجلا جريئا حازما فخاف نوح بن منصور وشُغل بالتفكير في أمره. وولي «تاش» القائد حربه في سبعة آلاف فارس، وأمره أن يذهب إليه، ويطفئ هذه الفتنة، ويكفيه هذا الأمر الصعب على الوجه الذي يرى فيه المصلحة.

وكان تاش عاقلا، سديد الرأي، حُوَّلا قُلَّبا، مظفرا في الحرب. ما همّ بأمر فرجع عنه خائبا، ولم يُهزم في حرب قط، وقد بقي لملك بني سامان، رونق عظيم، ولأمرهم نضارة تامة طول حياته.

وقلق الأمير لهذه الواقعة، واضطرب لها قلبه. فأرسل إلى الإسكافي وخلا به وقال: إني مشفق من هذا الأمر العظيم ما كان رجل شجاع وله مع الرجولة والشجاعة كفاية وسخاء. وقليل من أمثاله عُرف بين الديلم (ندر في الديالمة مثله) فينبغي أن تذهب مع تاش، وتذكره بكل ما يغفل عنه من أمر الجيش في هذه الواقعة. وسأقيم أنا في نيسابور ليشتد بي أزر الجيش، وينكسر قلب العدو ويجب أن يأتيني كل يوم رسول بملطفة[١٩] من رسائلك. وتثبت في هذه الملطفة خلاصة ما يقع، لتسلو به نفسي. قال الإسكافي: سمعا وطاعة. وفي الغد نشر تاش راياته، ودق طبوله ونصل من بخارى على المقدمة وعبر جيحون في سبعة آلاف فارس، وتبعه الأمير في بقية الجيش إلى نيسابور. فخلع على تاش والجند. وتقدم تاش حتى بيهق وجاوزها إلى قومس، وتوجه شطر الري في عزم وقوى، وحزم كامل.

وكان ماكان قد نزل على أبواب الري في عشرة آلاف محارب دارع، واستند إلى الري حتى جاء تاش فجاوز المدينة ونزل بإزائه، وترددت بينهما الرسل فلم يتفقا على شيء فقد غر ماكان هذا الجيش الهائل الذي جمعه من كل مكان.

وصمم الفريقان على الحرب. وكان تاش ذئبا مُسنًّا تمرس بقيادة الجيوش أربعين سنة، وشهد وقائع كثيرة؛ فأحكم التدبير حتى إذا التقى الجمعان تقدم في القلب أبطال ما وراء النهر وخراسان وحارب نصف جيش ماكان، وكف النصف الآخر عن الحرب، وقتل ماكان.

ولما فرغ تاش من القتل والأخذ والأسر توجه إلى الإسكافي وقال: لا بد أن نرسل حمامة ونرسل بعدها نجابا، ولكن عليك أن تجمل الوقائع في جملة واحدة تبين عن كل أحوالنا، وتخف على الحمامة ونبلغ بها ما نريد.

فأخذ الإسكافي رقعة مقدار إصبعين وكتب: «أما ماكان فصار كاسمه والسلام». أراد بما حرف النفي وبكان الفعل الماضي «ومعناه بالفارسية: ماكان جون نام خويش شد يعني نيست شد».

فلما بلغت الحمامة الأمير نوح بن منصور لم يعجب من هذا الفتح كما تعجب من هذا اللفظ: وزاد في الإحسان إلى الإسكافي وقال: لا يدرك هذه النكت إلا رجل فارغ القلب.

الحكاية الثالثة

كل صناعة لها بالفكر تعلق يحتاج صاحبها أن يكون فارغ القلب مرفها وإلا

طاشت سهام فكره ولم تجتمع على هدف الصواب لأنه لا يلائم بين الكلمات إلا باجتماع خاطره.

حكي أن أحد كتاب خلفاء بني العباس رضي الله عنهم كان يكتب رسالة إلى والي مصر وكان قد جمع خاطره واستغرق في بحر الفكر وشغِل بتأليف كلام كالدر الثمين والماء المعين.

فدخلت عليه جاريته بغتة وقالت: نفذ الدقيق. فاضطرب طبعه، وتفرق خاطره حتى انقطع سياق الكلام وبلغ من اضطرابه أن كتب في الرسالة: «نفذ الدقيق» وأتم الرسالة وبعث بها إلى الخليفة وهو لا يشعر بهذه الكلمة التي كتب.

فلما أخذ الخليفة الرسالة وطالعها حتى بلغ هذه الكلمة تحير ولم يستطع أن يفهمها على وجه من الوجوه لشدة غرابتها فأرسل إلى الكاتب وسأله عنها فخجل وصدقه الخبر في هذه الواقعة. فتعجب الخليفة كثيرا وقال: إن لأول هذه الرسالة على آخرها رجحانا كرجحان {قل هو الله أحد} على {تبت يدا أبي لهب}، حرام أن يشغل فكر بليغ مثلك بضوضاء الحاجات.

وبالغ في الإحسان إليه حتى لم تستقر في أذنه من بعد مثل هذه الكلمة. فلا جرم استطاع أن يجمع معاني الكونين في لفظين.

الحكاية الرابعة

كان الصاحب الكافي إسماعيل بن عباد الرازي وزير شاهنشاه. وكان فاضلا كاملا وترسله وشعره، على هذه الدعوى، شاهدا عدل وقاضيا صدق. وكان

الصاحب عدلي المذهب. وأصحاب العدل يتشددون في التقوى والتنسك ويجيزون أن يخلد المؤمن في جهنم في شعيرة. وكان أكثر عماله وخدمه وحشمه على مذهبه.

وكان في قم قاض من قِبَله. وكان للصاحب اعتقاد راسخ في نسكه وتقواه. والأخبار عنه تتوالى بخلاف ما يعتقد الصاحب فلا يصدقها حتى شهد اثنان من ثقات أهل قم أن القاضي أخذ خمسمائة دينار رشوة في خصومة كانت بين فلان وفلان. فأنكر الصاحب هذا إنكارا شديدًا من وجهين، جرأة القاضي وضعف دينه، وكثرة الرشوة. وأخذ القلم فورا وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم.

ويعلم الفضلاء ويعرف البلغاء أن هذه الكلمات في أي مرتبة في باب الإيجاز والفصاحة. لا عجب أن يكتب الفصحاء والبلغاء هذه الكلمة على القلوب وينقشوها في الأرواح منذ ذلك اليوم.

الحكاية الخامسة

لمغان مدينة في ديار السند من أعمال غزنة. وبينها وبين الكفار اليوم جبل عال. وأهلها في خوف دائم من غارة الكفار وبياتهم، ولكن اللمغانيين رجال أقوياء شجعان وأهل كسب وفيهم مع الجلادة لجاجة عظيمة لا يحجمون أن يشكوا عاملا ببيضة أو منّ من التبن بل بأقل من هذا يسوغون لأنفسهم أن يأتوا إلى غزنة ويقيموا شهرا أو شهرين ولا يرجعوا حتى ينالوا ما يريدون. وقصارى القول أن لهم في اللجاجة مهارة، وعلى الإصرار صبر.

وقد بيتهم الكفار ليلة فأخربوا وأتلفوا، وقد كانوا قوما يتمرغون في غير تراب[١].

فلما وقعت هذه الواقعة اجتمع جماعة من أعيانهم وتوجهوا إلى غزنة ومزقوا ثيابهم وحسروا عن رءوسهم ودخلوا سوق غزنة نائحين وذهبوا إلى قصر السلطان وبكوا وناحوا وحدثوا عما أصابهم أحاديث تبكي الحجر.

ولم يكن قد عرف عنهم هناك هذه الشدة واللجاجة والتزوير والتمويه. فرثى لهم الرئيس الكبير أحمد بن الحسن الميمندي، ووهب لهم خراج هذه السنة، وأمنهم من الحيف وقال: ارجعوا وجدّوا كثيرا، وأنفقوا قليلا لتعودوا كما كنتم أول العام القابل.

فرجع اللمغانيون في فرح عظيم، واستبشار كثير. وبقوا هذه السنة مرفهين، ولم يبذلوا حتى الماء لأحد. ولما انتهت السنة رجعت هذه الجماعة ورفعوا قصتهم إلى الرئيس. وخلاصتها أن السيد الرئيس الكبير عمّر عام أول ولايتنا بالرحمة والعطف وحفظها بحياطته وحمايته. وعاد أهل لغمان بكرمه وعطفه كما كانوا واستطاعوا أن يقيموا بهذا الثغر. ولكنه لازالت أحوالهم مختلة ويخشون إن طلب الخراج هذا العام، أن يستأصل بعضهم ويرجع أثر هذا الخلل إلى الخزانة المعمورة. فتلطف بهم الرئيس أحمد بن الحسن وحط عنهم مال السنة الثانية. فاستغنى أهل لمغان في هاتين السنتين. ولم يرضهم هذا فطمعوا في السنة الثالثة أن يوهب لهم الخراج أيضًا. فرجعت هذه الجماعة إلى الديوان وعرضوا قصتهم. وعرف الناس كلهم أن اللمغانيين مبطلون فكتب الرئيس الكبير على ظهر القصة:

---

(١) (بي خاك مراغة كردندى) والظاهر أنه كناية عن شدة المكر.

«الخَراج خُراج أداؤه دواؤه»

فسار هذا الكلام مثلا منذ عهد هذا الرئيس، وضرب في مواطن كثيرة. طيب الله ثراه.

الحكاية السادسة

ظهر في عهد دولة آل عباس رضي الله عنهم سادة عظام. وأمر البرامكة معروف مشهور وقد عرف مبلغ صلاتهم وهباتهم ولكن ذو الرياستين[٢١] الحسن بن سهل وأخوه الفضل بلغا السماء وانتهى أمرهما إلى أن خطب المأمون بنت الفضل له وكانت جارية كاملة الجمال. وليس لها في الفضل مثال.

وقد استقر الرأي على أن يذهب المأمون إلى دار العروس ويقيم بها شهرًا ثم يرجع إلى داره بالعروس. وفي اليوم الذي ضرب للذهاب أراد الخليفة على المعتاد أن يلبس أحسن ثيابه -وكان المأمون يديم لبس السواد. فظن الناس أنه يلبسه لأنه شعار العباسيين حتى سأله يوما يحيى بن أكثم: لماذا يفضل أمير المؤمنين الثياب السود؟ قال المأمون للقاضي: سود الثياب لباس الرجال والأحياء. فما تزف امرأة في ثياب سوداء. ولا يكفن ميت في ثوب أسود. فتعجب يحيى من هذا الجواب. فأراد المأمون ذلك اليوم أن ينظر ثياب الخزائن فلم يعجبه شيء من ألف قباء أطلس ومعدني وملكي ونسيج وممزج ومقراضي أكسون[٢٢]. ولبس السواد وركب إلى دار العروس.

وكان الفضل قد زين داره زينة حيرت الكبراء. وجمع نفائس تقصر الأنفاس عن وصفها. ولما بلغ المأمون باب الدار رأى سترا معلقًا أحسن من ربيع الصين، وأنفس

من شعار الدين. نقشه يعلق بالقلوب ولونه يمتزج بالأرواح. فالتفت إلى الندماء وقال: لو اخترت ما اخترت من ألف القباء لاستحييت منه هنا، الحمد لله على أن اقتصرت على هذا السواد.

ومما تكلفه الفضل ذلك اليوم أن المأمون حين توسط الدار أتى بطبق مملوء بقطع من الشمع على هيئة اللؤلؤ كل واحدة في حجم البندقة. وفيها رقعة كتب عليها اسم ضيعة. فنثر ما في الطبق تحت قدم المأمون. فكل من أخذ من رجال المأمون قطعة من هذا الشمع أرسل إليه قبالة هذه الضيعة.

فلما أتى المأمون بيت العروس رأى بيتا مجصصًا منقشًا، عليه إزار صيني أكثر رونقًا من المشرق حين تنفس الصبح، وأجمل من البستان حين يتفتح الورد. وقد استوعب البيت حصير من نسج الذهب، رصعت بالدر والعقيق والفيروز ووضعت على هذا النمط خمس حشايا جلست عليها دمية أغلى من العمر والحياة، وأطيب من الشباب والصحة. قامة يقر لها سرو غانفر بالعبودية، وعارض تقر له الشمس المضيئة بالسيادة، شعرها غيرة المسك والعنبر، وعينها حسد الجزع والعبهر. وقامت كالسرو مائسة وتقدمت إلى المأمون، وحيته كثيرا، واعتذرت إليه، وأخذت بيده فأجلسته في صدر المسند ووقفت أمامه للخدمة.

فأمرها المأمون أن تقعد فجثت، وطأطأت رأسها، ورمت البساط بطرفها.

فتولَّه المأمون. وكان قد وهبها قلبه فوهبها الروح معه. ومد يده إلى قبائه وأخرج ثماني عشرة لؤلؤة كل واحدة كبيضة عصفور أضوأ من كواكب السماء، وأكثر رونقا من ثنايا الحسناء، ومن المشترى وزحل أحسن تدويرا، بل أعظم نورًا، ونثرها فتدحرجت على البساط واستمرت حركتها لتدويرها واستواء البساط، ولم تسكن

فلم تلتفت العروس إلى هذه الجواهر ولم ترفع رأسها. فزاد شغف المأمون ومد يده وشرع يباسطها وهمَّ بعناقها. فغلبها الحياء. وبلغ من تأثر هذه العروس الرقيقة أن عرض لها ما يعرض للنساء؛ واحمرت وجنتاها من الخجل والحياء وقالت فورا: يا أمير المؤمنين، {أتي أمر الله فلا تستعجلوه}.

فقبض المأمون يده، وكاد يذهل من فصاحة هذه الآية، والتلطف في إيرادها في هذه الحادثة. فلم يستطع أن يصرف بصره عنها، ولبث في هذا البيت ثمانية عشر يوما، ولم يشغل إلا بها.

وارتفع أمر الفضل وبلغ ما بلغ.

الحكاية السابعة

وأما في زماننا فإن أمير المؤمنين المسترشد بالله[٢٣] بن المستظهر بالله من خلفاء بني العباس، طيب الله تربته، ورفع في الجنان مرتبته خرج من بغداد في جيش مهيأ، وأبهة عظيمة ومال لا ينفد، وسلاح لا يعد متوجهًا إلى خراسان لوحشة كانت من سلطان العالم سنجر وكان هذا من مكر أصحاب الأغراض وتمويه أهل الشر وتزويرهم.

فلما بلغ كرمانشاهان خطب يوم الجمعة خطبة تجاوزت أوج الشمس في الفصاحة وانتهت إلى العرش وعلّيين. وأعرب فيها عن ضيق صدره وخيبة رجائه شاكيا من آل سلجوق. وقد أقر فصحاء العرب وبلغاء العجم أن أحدًا بعد الصحابة رضوان الله عليهم -وهم تلاميذ صاحب الرسالة وورثة جوامع الكلم- لم ينظم مثل هذه الفقرات فصاحة وحزالة.

قال أمير المؤمنين المسترشد بالله:

فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبغوا علينا {فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون}.

الحكاية الثامنة

وقعت حرب على أبواب سمرقند بين كورخان الخطائي[٢٤] وسلطان العالم سنجر فهزم جيش المسلمين هزيمة منكرة، واستولى كورخان على ما وراء النهر. بعد أن قُتل إمام الشرق حسام الدين أنار الله برهانه ووسع عليه رضوانه.

ثم ولّى كورخان على بخارى أتمتكين ابن الأمير بياباني وابن أخي أتسز[٢٦] ملك خوارزم. ولما عزم على الرجوع أوصى به إلى الأستاذ الإمام تاج الإسلام أحمد بن عبد العزيز، وكان إمام بخارى وابن برهان[٢٧]، وأمره أن يصدر في أعماله كلها عن إشارته، ولا يعمل شيئا بغير أمره، ولا يتصرف في أمر إلا في حضوره.

ورحل كورخان عائدا إلى برسخان.

ولم يكن لعدله نهاية، ولا لنفاذ أمره حد. والحق أن حقيقة الملك لا تعدو هذين.

ولما خلا الجو لأتمتكين ظلم الناس، وشرع يصادر أهل بخارى. فذهبت طائفة من البخاريين وفدا إلى برسخان[٢٨] وتظلموا، فلما سمع كورخان ظلامتهم كتب إلى أتمتكين على طريقة أهل الإسلام:

«بسم الله الرحمن الرحيم. يعلم أتمتكين أنه إن تكن المسافة بيننا بعيدة فرضانا

وسخطنا منه قريب. ليفعل أمتكين ما يأمر به أحمد. وليأمر أحمد بما أمر به محمد والسلام».

وقد تفكرنا مرارا وتأملنا فإذا شرح هذه الرسالة ألف مجلد بل أكثر. ومضمونها بيّن واضح كل الوضوح، لا يحتاج إلى شرح. وقلما رأيت مثلها.

الحكاية التاسعة

غاية فصاحة القرآن إيجاز اللفظ وإعجاز المعنى. وكلما تيسر للفصحاء والبلغاء تضمينا منه أدهش السامعين، وأقام قيامة العقلاء. وهذا دليل واضح، وبرهان قاطع على أن هذا الكلام لم تجر به أنفاس مخلوق، ولم يحدثه فم ولا لسان، وأن رقم القِدم مثبت على ناصية عباراته وإشاراته.

حكي أن أحد المسلمين كان يقرأ هذه الآية أمام الوليد بن المغيرة: {وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين}. فقال الوليد: والله إن عليه لطلاوة، وإن له لحلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغدق، وما هو قول البشر.

فإن كان الأعداء قد بلغوا هذا المقام في ميادين الإنصاف، فانظر ما يبلغ الأصدقاء. والسلام.

الحكاية العاشرة

ومن سنن ملوك العصر وجبابرة الزمان الأول أن يتفاخروا بالعدل والفضل ويتنافسوا فيهما. وكانوا كلما أرسلوا رسولا زودوه بالحكم والألغاز والرموز. وكان الملك يستعين بأرباب العقل والتمييز، وأولي الرأي والتدبير، يعقدون مجلسا بعد مجلس حتى يتفقوا على أجوبة هذه المسائل وتتضح هذه الألغاز والرموز، وحينئذ يأذنون للرسول في العودة.

وكانت هذه العادة متبعة إلى زمان السلطان العادل يمين الدولة والدين محمود بن سبكتكين رحمه الله.

ولما جاء السلاجقة بعده وكانوا بداة لا علم عندهم بأخبار الملوك ومآثرهم درست في عهدهم أكثر رسوم الملك، وانطمس كثير من ضروريات السلطان، ومن هذا ديوان البريد فقس عليه غيره.

وقد روي أن السلطان يمين الدولة محمودًا رحمه الله أرسل يوما رسولا إلى بغراخان[٢٩] فيما وراء النهر. وأثبت في الرسالة التي بعث بها هذا الفصل:

قال الله تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}. وقد اتفق أرباب الحقائق وأصحاب الدقائق على أن المراد التقوى من الجهل. فليس نقصان لأرواح الناس أسوأ من نقصان الجهل، وأدنأ من قلة العلم، والكلام القديم يشهد بصحة هذه القضية وصدق هذا الخبر: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}، فنحن نريد من أئمة ما وراء النهر وعلماء الشرق وأفاضل الحضرة

الخاقانية أن يبينوا لنا ضروريات هذه المسائل:

ما النبوة، وما الولاية، وما الدين، وما الإسلام، وما الإيمان، وما الإحسان، وما التقوى، وما الأمر بالمعروف، وما النهي عن المنكر، وما الصراط، وما الميزان، وما الرحمة، وما الشفقة، وما العدل، وما الفضل؟

فلما بلغت هذه الرسالة حضرة بغراخان واطلع على مضمونها ومكنونها، دعا أئمة ما وراء النهر من كل صوب، وفاوضهم في هذا المعنى. فالتزم بعض كبار أئمة ما وراء النهر أن يؤلف كل منهم في هذا الباب كتابًا ويبينوا أجوبة هذه المسائل في فصول الكتاب وسألوا النظرة أربعة أشهر. وكان في هذه المهلة أنواع من الضرر أقواها نفقات الخزانة للرسل والوفود وفي تعهد الأئمة.

فقال محمد بن عبده الكاتب[٣٠] -وكان كاتب بغراخان، وله في العلم تعمق، وفي الفضل تنوق، وفي النظم والنثر تبحر، وكان أحد فضلاء الإسلام وبلغائه: «أنا أجيب هذه الأسئلة في كلمتين إجابة إذا اطلع عليها أفاضل الإسلام، وأماثل المشرق رضوا بها، وأقروا بحسنها، ثم أخذ القلم وكتب في حاشية المسائل على طريقة الفتوى:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله».

فعض أئمة ما وراء النهر أناملهم تعجبا وتحيروا وقالوا: «هذا جواب كامل وهذا لفظ شامل». وتهلل الخاقان العظيم إذ كفاه كاتبه ولم يحتج إلى الأئمة.

وحينما بلغ الجواب غزنة، وقع الإجماع على استحسانه.

فينتج من هذه المقدمات أن الكاتب العاقل، والأديب الفاضل جمالٌ للملك، وأعظم رفعة للملك. وبعد فنتم هذه المقالة بهذا الخطاب والسلام.